الحجج اللغوية لابن تيمية
في
مسألة كلام الله عز وجل
والرد على المخالفين

الباحثة/ فاطمة عبد الله المنصور
كلية التربية ـ قسم الثقافة الإسلامية
جامعة حائل ـ المملكة العربية السعودية

مقدمة

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

والحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى، يحيون بكتاب الله الموتى ويبصِّرون بنور الله أهل العمى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه وكم من ضال تائه قد هدوه، فما أحسن أثرهم في الناس وأقبح أثر الناس فيهم، ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين الذين عقدوا ألوية البدعة وأطلقوا عقال الفتنة فهم مختلفون في الكتاب مخالفون للكتاب مجمعون على مفارقة الكتاب يقولون على الله وفي الله وفي كتاب الله بغير علم يتكلمون بالمتشابه من الكلام ويخدعون جهّال الناس بما يشبهون عليهم فنعوذ بالله من فتن المضلين، والصلاة والسلام على سيد الأنام محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد : فإن الناظر عند تفسير أهل البدع والأهواء لنصوص الكتاب والسنة، يجد محاولاتهم تطويع اللغة العربية ولي عنق النصوص لتوافق معتقدهم الفاسد ظناً منهم أن ذلك تنزيهٌ لله وتقديسٌ له، فهبّ علماء الإسلامُ لمنازلة المخالفين، والرد عليهم بالحجة والبينة والعدل فبرزت ردود العلماء عليهم، وكان شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – ممن أسهم في ذلك وأفرد لذلك مجلدات بين فيها ما هم عليه من خطأ، وفند شبههم في استنادهم إلى اللغة العربية، وبين بطلان دعواهم، فجاءت تقارير وردود ابن تيمية قوية، مبنية على قواعد، سطرها –رحمه الله– في كتبه ورسائله المختلفة ، ولما كانت نصوص القرآن الكريم والسنة

النبوية هي مصادر التشريع، وهي بلسان عربي مبين، كان لزاماً لمن يتصدر لفهم هذه النصوص أن يكون على علم بلغة هذه المصادر، فلغة الشرع جارية على سنن العرب في كلامها، ولا تخفى مكانة ابن تيمية في اللغة العربية، وتأكيده على أهمية العربية في فهم الدين، ولقد كان من احتجاجات شيخ الإسلام ابن تيمية التي احتج بها في تقرير العقيدة والرد على المخالفين احتجاجات ذات دلالة لُغوية، خاصة في المسائل العقدية المرتبطة بمباحث لغوية، وعند استقراء كتب ابن تيمية نجد الكثير منها، فكان رحمه الله يحتج على أهل البدع والأهواء بحجج لغوية، ويبين ماهم عليه من خطأ، فكان جمعي لها على أبواب العقيدة، اسأل الله أن يجعل عملنا هذا خالصاً لوجهه الكريم ، وأن ينفع بنا الإسلام والمسلمين.

خطة البحث:

يتكون البحث من مقدمة وأربعة مباحث وخاتمة، كالتالي:

- المقدمة .
- المبحث الأول : المراد بمسمّى الكلام .
- المبحث الثاني : إثبات صفة الكلام .
- المبحث الثالث : مسألة النداء .
- المبحث الرابع : الرد على القائلين بخلق القرآن
- الخاتمة.

الحجج اللغوية لابن تيمية في مسألة كلام الله عز وجل والرد على المخالفين

وفيه أربعة مباحث :

المبحث الأول : المراد بمسمّى الكلام .

المبحث الثاني : إثبات صفة الكلام .

المبحث الثالث : مسألة النداء .

المبحث الرابع : الرد على القائلين بخلق القرآن

المراد بمسمّى الكلام

الكلام في اللغة: قال ابن فارس :الكلام لغة يدل على نطق مفهم...، تقول : كلمته أكلمه تكليما ، وهو كليمي إذا كلمك أو كلمته.(١)

والكلام : القول ، وقيل : الكلام ما كان مُكتفياً بنفسه وهو الجملة ، والقول ما لم يكن مكتفياً بنفسه ، وهو الجزء من الجملة .

والكلام اسم جنس يقع على القليل والكثير ، والكلم لا يكون أقل من ثلاث كلمات.(٢)

الكلام اصطلاحاً: الكلام كل لفظ مستقل بنفسه مفيد لمعناه، وهو الذي يسميه النحويون الجمل، نحو زيد أخوك ،وقام محمد .(٣)

وعرفه العكبري بقوله :" الكلام عبارة عن الجملة المفيدة فائدة تامة ، كقولك :زيد منطلق،وإن تأتني أكرمك، وقم ، وصه ، وما كان نحو ذلك ، فأما اللفظة المفردة نحو زيد وحده، و من ونحو ذلك فلا يسمى كلاماً ، بل كلمة ، وهذا قول الجمهور"(٤) .

وعند ابن تيمية الكلام اسم للحروف والمعاني جميعاً ، فاللفظ والمعنى داخل في مسمى الكلام (٥) ،ويقول في موضع آخر :"..كلام المتكلم هو: عبارة عن ألفاظه ومعانيه..ليس الكلام اسماً لمجرد الألفاظ ولا لمجرد المعاني" (٦).

---

(١) معجم مقاييس اللغة (١٣١/٥).

(٢) انظر: لسان العرب (١٠٥/١٣) ،مادة كلم .

(٣) انظر: الخصائص (١٧/١).

(٤) التبيين عند مذاهب النحويين ص١١٣.

(٥) الفتاوى (٤٢٦/٦).

(٦) الفتاوى (٤٥٦/١٢).

فالكلام عند إطلاقه يتناول اللفظ والمعنى جميعاً ، يقول ابن تيميةرحمه الله :" وعامة ما يوجد في الكتاب والسنة وكلام السلف والأئمة بل وسائر الأمم عربهم وعجمهم من لفظ:الكلام،والقول ، وهذا كلام فلان ،أو كلام فلان، فأنه عند إطلاقه يتناول اللفظ والمعنى جميعاً، لشموله لهما "(١).

ونصوص الكتاب والسنة تؤكد أن الكلام هو اللفظ والمعنى جميعاً ، يقول جل وعلا: ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۞ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ [الكهف:٤-٥] ، ومن السنة حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم يتكلموا أو يعملوا به)(٢).

ولما سئل الرسول صلى الله عليه وسلم :وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال:(وهل يكب الناس في النار على وجوههم، أو قال: على مناخيرهم إلا حصائد ألسنتهم)(٣).

وللناس في المراد من مسمى الكلام أقوال،منها:

١- قول أهل السنة والجماعة : إن الكلام اسم للفظ والمعنى جميعاً .

٢- قول المعتزلة: إن الكلام اسم لمجرد اللفظ والحروف فقط ، ومسماه هو

(١) الفتاوى (١٢/٤٥٦-٤٥٧) ، وانظر أيضاً:الفتاوى (١٢/٦٧-٦٩) .

(٢) رواه البخاري في كتاب: الطلاق ، باب: الطلاق في الإغلاق ، حديث رقم٤٩٦٨ ، ورواه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: تجاوز الله عن حديث النفس ،حديث١٢٧، واللفظ له.

(٣) أخرجه أحمد في المسند(٥/٢٣١)، وابن ماجة في أبواب الفتن(٣١)، باب كف اللسان في الفتنة(١٢)، برقم٤٠٢١ ، والترمذي في كتاب الإيمان ٤١، باب ما جاء في حرمة الصلاة ٨ ، برقم ٢٦١٦، وقال: هذا حديث حسن صحيح،حسنه الألباني في إرواء الغليل(٢/١٣٩) ، وفي صحيح سنن ابن ماجة(٢/٣٥٩).

اللفظ ، وأما المعنى فليس جزء مسماه، بل هو مدلول مسماه، فقالوا إن كلام الله مخلوق منفصل عنه ،لأن الكلام هو الألفاظ والحروف ، وهذا لا يجوز أن تقوم بالله فجعلوها مخلوقة منفصلة.

٣- قول الكلابية ومن تبعهم من متقدمي الأشاعرة: إن الكلام هو للمعنى النفسي فقط، وإطلاق اللفظ والحروف مجاز، لأنه دال عليه.

٤- قول متأخري الأشاعرة ومن وافقهم: إن الكلام يُطلق على اللفظ والمعنى بطريق الاشتراك اللفظي أو التضمّن.[١]

احتجاج شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بالدلالة اللغوية عليهم :

في هذه المسألة دلل شيخ الإسلام رحمه الله على أن مسمى الكلام المطلق في لغة العرب، ولغة القرآن والسنة هو اللفظ والمعنى جميعاً ،فاحتج ابن تيمية عليهم بأن الكلام ، وأنواعه كالخبر والأمر والنهي ، وغيرها إذا أطلق في لغة العرب أو في القرآن أو في السنة ، كان المفهوم منه اللفظ والمعنى جميعهما، وهذا علامة على أنه حقيقة في ذلك ، ويدل على ذلك أنه إذا قيل: تكلم فلان أو أمر ،أو نهى ،أو أخبر ،أو هذا كلام فلان كان المفهوم عند الإطلاق اللفظ والمعنى جميعاً ، وليس مجرد المعنى[٢] ، يقول ابن تيمية :"لفظ الكلمة في لغة القرآن والحديث وسائر لغة العرب إنما يراد به الجملة التامة.. ولا يوجد لفظ

(١) انظر: مجموع الفتاوى(٥٣٣/٦) و (٦٧/١٢) ، والإيمان ص ١٦٢، ودرء التعارض (٣٢٩/٢) و(٢٢٢/١٠)، والاستقامة (٢١١/١)، وشرح الأصول الخمسة ص٥٢٨ ، والإرشاد ص١٠٤،ونهاية الوصول(٦٦/١) ، والبحر المحيط(٤٤٣/١) ،وشرح الكوكب المنير(٢٧/٢)، والمحصول (١٧٧/١).

(٢) انظر :الفتاوى(٥٣٣/٦).

الكلام في لغة العرب إلا بهذا المعنى.."[1]، ويقول في موضع آخر :".. ولهذا كان لفظ الكلام والكلمة في لغة العرب..لا تستعمل إلا في المفيد ، وهو الجملة التامة ، اسمية كانت أو فعلية أو ندائية .. فأما مجرد الاسم أو الفعل ، أو الحرف الذي جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل، فهذا لا يسمى في كلام العرب قط كلمة، وإنما تسمية هذا كلمة اصطلاح نحوي.. وكذلك حيث وجد في الكتاب والسنة، بل في كلام العرب نظمه ونثره، ولفظ كلمة، فإنما يراد به المفيد، التي تسميها النحاة جملة تامة"[2]، وبين رحمه الله أن هذا هو مذهب أهل اللغة العارفين بها، يقول ابن تيمية رحمه الله:"يقول أهل العربية وهم أخبر بمتشابهات الألفاظ من غيرهم : إن اسم الكلام لا يقال إلا على الجملة المفيدة كالمركبة من اسمين أو اسم وفعل . وقد ذكر ذلك سيبويه حكيم لسان العرب في (باب الحكاية بالقول) حيث ذكر أن القول يحكى به ما كان كلاما ، ولا يحكى به ما كان قولا ، والقول إنما تحكى به الجمل المفيدة فاعلم أنها هي الكلام في لغة العرب"[3] .

(١) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ص ١٥٧-١٥٨.

(٢) الفتاوى(١٠١/٧).

(٣) الفتاوى(٤٥٩/١٢-٤٦٠).

إثبات صفة الكلام

أن الكلام صفة من صفات الله اللازمة لذاته، وأنه جل وعلا متكلم على ما يليق بجلاله وكلامه قديم النوع، حادث الآحاد، وأنه عز وجل لم يزل متكلما إذا شاء بما شاء كيف شاء، وأنه يتكلم بحرف وصوت يسمعه من شاء من خلقه[1].

والنصوص الدالة على إثبات صفة الكلام لله – على وفق مذهب السلف – كثيرة جدًّا، ومن هذه الأدلة:

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[البقرة:٣٠] ، وقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ﴾ [البقرة:٣٤].

أما من السنة فالأحاديث في ذلك كثيرة، منها: قول النبيﷺ لما صلى بهم صلاة الصبح بالحديبية: (أتدرون ماذا قال ربكم الليلة؟، قالوا الله ورسوله أعلم،قال:(أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر..)[2] ، وحديث (إذا قضى الله الأمر في السماء، ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله، كالسلسلة على صفوان، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال الحق وهو العلي الكبير...)[3] ، وفي لفظ آخر: (إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماء للسماء صلصلة كجر السلسلة على الصفا..)[4].

---

(١) انظر: الفتاوى (٦/٢١٩).

(٢) رواه البخاري ٨٤٦ ،ومسلم ٧١ من حديث زيد بن خالد الجهني .

(٣) رواه البخاري ٤٧٠١ .

(٤) رواه أبو داود ٤٧٣٨، من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه ، وسكت عنه وصححه شيخ الإسلام ابن تيمية في العقيدة الأصفهانية٦٨ ، الألباني في صحيح أبي داود.

وللناس في "كلام الله" أقوال ، وأهم هذه الأقوال ، مايلي:

١- قول أهل السنة والجماعة : إن الله لم يزل متكلماً إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء ، بكلام يقوم به، وهو يتكلم بصوت يسمع، وإن نوع الكلام أزلي قديم، وإن لم يجعل نفس الصوت المعين قديماً.

٢- قول المعتزلة والجهمية النفاة لصفات الله، قالوا : إن كلام الله مخلوق منفصل عنه، خلقه في غيره.

٣- ومنهم من قال: إنه معنى واحد قائم بذات الله ، هو الأمر والنهي والخبر والاستخبار، وإن عبر عنه بالعربية كان قرآنا، وإن عبر عنه بالعبريه كان توراة ، وهذا قول ابن كلاب ومن وافقه ، كالأشعري وغيره .

٤- القول إنه حروف وأصوات، لكن تكلم الله بها بعد أن لم يكن متكلما ، وهذا قول الكرامية وغيرهم .

٥- والقول بأن كلامه يتضمن معنى قائما بذاته هو ما خلقه في غيره، وهذا قول أبي منصور الماتريدي.

٦- ومنهم من يقول: إنه مشترك بين المعنى القديم القائم بالذات وبين ما يخلقه في غيره من الأصوات، وهذا قول أبي المعالي ومن تبعه.

٧- ومنهم من قال: إن كلامه يرجع إلى ما يحدثه من علمه وإرادته القائم بذاته، وهذا يقوله صاحب المعتبر، ويميل إليه الرازي في المطالب العالية.

٨- والقول إن كلام الله هو ما يفيض على النفوس من معان، إما من العقل الفعال عند بعضهم، أو من غيره، وهذا قول الصابئة

والمتفلسفة.(١)

وجه الإشكال عند المخالفين :

نفت المعتزلة صفة الكلام عن الله تنزيهاً له جل وعلا عن الحوادث والأعراض، حيث كان منهجهم أن ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث، والكلام عرض وحادث فيجب تنزيه المولى عن أن يوصف به ، لأن ما ثبت للمخلوق وجب نفيه عن الخالق، وقالوا إن كلام الله مخلوق،يخلقه في بعض الأجسام(٢) .

وأما الأشاعرة فقد قالوا خلافاً للمعتزلة والجهمية وغيرهم من النفاة إن هذه الصفة ثابتة، قائمة بالله تعالى، ولكنهم فسروها بأنها معنى يقوم بذات الله، لازم له أزلاً وأبداً، وسموا هذا المعنى بالكلام النفسي(٣) وقالوا إن هذا المعنى القائم بالذات لا ينقسم إلى سرٍّ وعلانية، ولا يكون منه شيء في نفس الربِّ وشيء منه عند الملائكة، بل إسماع الملائكة أو غيرهم لكلامه إنما هو خلق إدراك لهم فقط ، يقول الجويني :" كلام الله تعالى مسموع بإطلاق المسلمين ، ومعنى السمع هو الإدراك والفهم والعلم"(٤).

---

(١) انظر:الفتاوى(١٢/٤٢-٥٢)،(١٢/١٦٣-١٧٣)،والجواب الصحيح(٢/١٦٢-١٦٣)،ومنهاج السنة(٢/٢٧٨-٢٨٦)، و درء التعارض(٢/٢٥٥)، وشرح الطحاوية ص ١٩٨-١٩٩ .

(٢) انظر: شرح الأصول الخمسة ص٥٢٨، ومقالات الإسلاميين (١/٢٦٧).

(٣) انظر: الإنصاف للباقلاني ص٧١، ٩٣-٩٩ ، والإرشاد للجويني ص ١٠٩، ونهاية الإقدام ص ٨٨ ، ومعالم أصول الدين للرازي ص٦١-٦٤ .

(٤) انظر: الإرشاد للجويني ص١٢٩ ، وانظر أيضاً : موقف ابن تيمية من الأشاعرة (٣/١٢٦١).

احتجاج شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بالدلالة اللغوية عليهم :

من حجج شيخ الإسلام اللغوية على نفاة صفة الكلام عن الله تعالى قوله رحمه الله نقلاً عن أبي القاسم الأصبهاني :" أجمع المسلمون على أن القرآن كلام الله وإذا صح أنه كلام الله صح أنه صفة الله تعالى وأنه موصوف به وهذه الصفة لازمة لذاته تقول العرب : (زيد متكلم) فالكلام صفة له لا نعرف إلا أن حقيقة هذه الصفة الكلام وإذا كان كذلك كان القرآن كلام الله وكانت هذه الصفة لازمة له أزلية والدليل على أن الكلام لا يفارق المتكلم أنه لو كان مفارقه لم يكن للمتكلم إلا كلمة واحدة فإذا تكلم بها لم يبق له كلام فلما كان المتكلم قادرا على كلمات كثيرة كلمة بعد كلمة دل على أن تلك الكلمات فروع لكلامه الذي هو صفة له ملازمة "[1].

وأما من قال بالكلام النفسي، فقد ناقش شيخ الإسلام حجتهم في ذلك، وبيَّن أنه لا دليل لهم فيها ، ومنها ما يلي:

قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ ﴾ [المجادلة:٨] ، فإن المراد: أنهم قالوه بألسنتهم سرًّا، وحينئذٍ فلا حجة لهم فيه. وهذا هو الذي ذكره المفسرون، حيث كانوا يقولون: سام عليك، فإذا خرجوا يقولون في أنفسهم، أي يقول بعضهم لبعض: لو كان نبيًّا عذبنا بقولنا له ما نقول ، وأيضاً في الآية يتبين أنه قيده بالنفس، وهذا على أن المقصود أنهم قالوه بقلوبهم، وإذا قيد القول بالنفس كانت دلالة المقيد خلاف دلالة المطلق، والدليل قول النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الله تجاوز لأمتي عمَّا حدثت به أنفسها، ما لم تتكلم أو

(١) درء التعارض (٢٨٣/١).

تعمل)[1]، وهذا رد عليهم مطلقاً لأنه قال "ما لم تتكلم" فدل على أن حديث النفس ليس هو الكلام المطلق [2].

وأما من قال من الجهمية ونحوهم إن الله يخلق كلاماً في غيره ، فقد حاجهم ابن تيمية رحمه الله بقوله:"..هذا تبديل للحقيقة التي فطر الله عليها عباده، واللغة التي اتفق عليها بنو آدم، والكتب التي أنزلها الله من السماء، ولما كان من المعلوم بالفطرة الضرورية التي اتفق عليها بنو آدم ..أن المتكلم هو الذي يقوم به الكلام ، ويتصف به، كذلك المحب والمريد ومن تقوم به المحبة والإرادة، كما أن العليم والقدير من يقوم به العلم والقدرة " [3].

(١) رواه البخاري في صحيحه٦٦٦٤ ، ومسلم ١٢٧، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .
(٢) انظر: الإيمان ص١٢٩ ، والفتاوى (١٣٥/٧).
(٣) التسعينية (٢٧٥/١-٢٧٦).

مسألة النداء

النداء والمناداة : هي الكلام بصوت مرتفع ، والنداء والمناداة والكلام لا يكون إلا بصوت مسموع وهذا الصوت متكون من حروف تنتظم في كلمات وجمل مفهومة، يقول ابن تيمية رحمه الله نقلاً عن أبي بكر المروذي صاحب الإمام أحمد:"..قال: سمعت أبا عبدالله، وقيل له: إن عبدالوهاب قد تكلم ، وقال: من زعم أن الله كلم موسى بلا صوت فهو جهمي عدو الله، وعدو الإسلام ، فتبسم أبو عبدالله وقال: ما أحسن ما قال، عافاه الله"(١).

وأهل السنة والجماعة يثبتون النداء والمناداة لله جل وعلا، ولقد دل على ذلك الكتاب والسنة، بقول الله جل وعلا: ﴿ وَنَدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴾ [مريم:٥٢] ، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ ﴾ [طه:١١-١٢] ، وثبت له النداء في قوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ﴾ [النازعات:١٥-١٦].

ومن السنة قوله ﷺ :(يحشر الله العباد أو الناس عُراة غرلاً بُهماً ، قلنا ما بُهماً؟ قال: ليس معهم شيء ، فيناديهم بصوت يسمعه من بعد- أحسبه قال كما يسمعه من قرب_ أنا الملك أنا الديّان، لا ينبغي لأحد من أهل الجنة يطلبه بمظلمة، ولا ينبغي لأحد من أهل النار يدخل النار ، وأحد من أهل الجنة يطلبه بمظلمة)(٢).

والأحاديث في ذلك كثيرة ، يقول ابن تيمية رحمه الله:" ..واستفاضت الآثار عن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين ، ومن بعدهم من أئمة السنة

(١) درء التعارض(٢/٣٨).

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند(٣/٤٩٥) بسند جيد، ورواه البخاري في أفعال العباد ١٤٩ .

أنه سبحانه يُنادي بصوت: نادى موسى، وينادي عباده يوم القيامة بصوت ، ويتكلم بالوحي بصوت، ولم ينقل عن أحد من السلف أنه قال : إن الله يتكلم بلا صوت ، أو بلا حرف ، ولا أنه أنكر أن يتكلم الله بصوت أو بحرف"[١] ، ويقول في موضع آخر :"وقد نص أئمة الإسلام أحمد ومن قبله من الأئمة على ما نطق به الكتاب والسنة من أن الله ينادي بصوت وأن القرآن كلامه تكلم به بحرف وصوت"[٢].

المخالفون في هذه المسألة:

الجهمية قالت إن الله لا يتكلم بصوت[٣] ،وأنكرت الكلابية والأشاعرة أن الله عز وجل يتكلم بحرف وصوت وذلك بناء على قولهم إن كلام الله معنى قائم بالذات[٤].

وجه الإشكال عند المخالفين:

من الشبه التي قالوا بها إن الكلام المسموع لا يكون إلا بمخارج وأن الله عز وجل ليس بذي مخارج ، ويعتقدون أن من أثبت الحرف والصوت لزمه التشبيه[٥].

احتجاج شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بالدلالة اللغوية عليهم:

لقد احتج شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله على المخالفين في مسألة النداء بعدة حجج،ومنها حججه اللغوية ،يقول رحمه الله:"..إن الله ينادي بصوت وأن

(١) الفتاوى(١٢/٣٠٤-٣٠٥).

(٢) الفتاوى(١٢/٥٨٤).

(٣) انظر: التسعينية (٢/٥٨٨-٥٨٩).

(٤) انظر: الفتاوى(١٢/١٦٥-١٦٦) ، ومقالات الإسلاميين(٢/٥٨٤-٥٨٥).

(٥) انظر: الأسماء والصفات للبيهقي ص٢٧٣-٢٧٤ ،وفتح الباري(١٣/٤٥٧-٤٥٨).

القرآن كلامه تكلم به بحرف وصوت "[1].

فالمناداة في قوله تعالى: ﴿ وَنَدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴾ [مريم:٥٢] ، لا تكون إلا بصوت، وهذا يتبين إذا رجعنا إلى اللغة العربية، يقول ابن تيمية رحمه الله :" والنداء في لغة العرب : هو صوت رفيع، لا يطلق النداء على ما ليس بصوت لا حقيقة ولا مجازاً ، وإذا كان النداء نوعاً من الصوت فالدال على النوع دال على الجنس بالضرورة"[2]، ويقول رحمه الله أيضاً:" النداء لا يكون إلا صوتاً مسموعاً ولا يعقل في لغة العرب لفظ النداء بغير صوت مسموع لا حقيقة ولا مجازاً"[3].

ويقول ابن تيمية رحمه الله نقلا عن الإمام أبو نصر السجزي :".. قال: وقد بين الله في كتابه ما لا إشكال بعده في هذا الفصل لما قال : ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ ﴾ [الشعراء:١٠] ، والعرب لا تعرف نداء إلا صوتا، وقد جاء عن موسى تحقيق ذلك فإن أنكروا الظاهر كفروا وإن قالوا:إن النداء غير صوت، خالفوا لغات العرب وإن قالوا: نادى الأمير – إذا أمر غيره بالنداء– دفعوا فضيلة موسى عليه السلام المختصة به من تكليم الله إياه من غير واسطة ولا ترجمان وليس في وجود الصوت من الله تعالى تشبيه بمن يوجد الصوت منه من الخلق كما لم يكن في إثبات الكلام له تشبيه بمن له كلام من خلقه وكيف وكلامه وكلام خلقه معا عن الأشعري معنى قائم بذات المتكلم لا يختلف فهو المشبه لا محالة "[4].

(١) الفتاوى(١٢/٥٨٤).
(٢) الفتاوى(٦/٥٣١).
(٣) الفتاوى (١٢/١٣٠).
(٤) درء التعارض(١/٢٧٩).

الرد على القائلين بخلق القرآن (١)

هذه المسألة من أعظم المسائل التي وقع فيها الخلاف بين أهل السنة والجماعة وبين بقية الفرق ، فلقد ابتلي المسلمون بهذه الفتنة العظيمة وتفرقوا إلى أقوال كثيرة ، وناصر الحكام أهل الباطل ونصروهم على أهل السنة .

ومذهب أهل السنة والجماعة في ذلك أن القرآن كلام الله منه بدأ بلا كيفية قولاً ،فأنزله على رسوله وحياً ، وصدقه المؤمنون على ذلك حقاً ، وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة ليس بمخلوق ككلام البرية[٢].

قال ابن تيمية رحمه الله :" ومن الإيمان بالله وكتبه : الإيمان بأن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود ، وأن الله تعالى تكلم به حقيقة"[٣].

مذاهب الناس في ذلك :

---

(١) ظهرت فتنة القول بخلق القرآن في أواخر عهد بني أمية على لسان الجعد بن درهم وأخذ هذه المقالة وغيرها عنه الجهم بن صفوان فنسبت إليه. وفي العهد العباسي وبالتحديد في بداية القرن الثالث أثار هذه المسألة بشر المريسي وابن أبي داود ، وظهورها في هذه الفترة اختلف عن ظهورها في أيام الجعد الذي كان مصيره القتل ،ففي هذه الفترة استخدم المبتدعة السلطة وحاولوا بكل الطرق لإيصال هذا المذهب إلى الناس وإجبارهم على اعتقاده ، وكان الخليفة المأمون يناصرهم على ذلك ويحمل أئمة السنة على القول بذلك وعلى رأسهم الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله فصمد وثبت على الحق ، ومات المأمون وخلفه أخوه المعتصم ،وكان على ما كان عليه المأمون من جور ، ومات المعتصم وخلفه ابنه الواثق الذي سار على نهج من قبله في القول بخلق القرآن ،ومات الواثق وخلفه أخوه المتوكل ، فأنهى هذه الفتنة وقطع دابرها ونصر السنة وأهلها. انظر: الفتاوى (٤٣٩/١٢) ، والبداية والنهاية (٣٤٥/١٠-٣٥٤) ، ومناقب الإمام أحمد لأبن الجوزي ص٣٨٧.

(٢) انظر: شرح الطحاوية ص١٧٢.

(٣) الفتاوى (١٤٤/٣).

١- المعتزلة والجهمية : قالوا إن القرآن مخلوق، فالمعتزلة مجمعون على أن القرآن مخلوق محدث[١].

٢- أهل السنة والجماعة: قالوا :القرآن كلام الله غير مخلوق ، قالوا بذلك بالإجماع[٢]، يقول ابن تيمية عن إجماع أئمة المسلمين : "..كلهم متفقون على أن القرآن منزل غير مخلوق وأن الله أرسل به جبريل ، نزل به جبريل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم فبلغه محمد إلى الناس فقرأه الناس بحركاتهم وأصواتهم ، وليس شيء من أفعال العباد وأصواتهم قديماً ولا غير مخلوق، ولكن كلام الله غير مخلوق، ولم يكن السلف يقولون: إن القرآن قديم .."[٣].

٣- الواقفة قالوا: لا نقول مخلوق ولا نقول غير مخلوق، وقال بعضهم : إن القرآن كلام الله، وإنه محدث كان بعد أن لم يكن وبالله كان ، وهو الذي أحدثه وامتنعوا من إطلاق القول بأنه مخلوق أو غير مخلوق [٤]، وهؤلاء عند كثير من العلماء ممن رد على من قال بخلق القرآن قالوا: هؤلاء الواقفة: مثل من قال: القرآن مخلوق وأشر لأنهم

---

(١) انظر: شرح الأصول الخمسة للقاضي عبدالجبار ص٥٢٨، يقول فيه:(وأما مذهبنا في ذلك فهو أن القرآن كلام الله ووحيه ، وهو مخلوق محدث).
وانظر أيضاً: المغني لعبدالجبار الهمداني المعتزلي(٣/٧) ، مقالات الإسلاميين (٢٦٧/١)، والمحيط بالتكليف ص٣٣١، والتبصير في معالم الدين لابن جرير ص٢٠١، ومختصر الصواعق ص٤٠٩-٤١٠ ، ومتشابه القرآن(٤٩٠/٢).

(٢) انظر: شرح أصول السنة للالكائي (٢٢٧/٢) ،والفتاوى (٥٢٩/٦)، وشرح الأصفهانية ص٢٠-٢١.

(٣) الجواب الصحيح (٣٣٩/٤). وانظر: منهاج السنة (٤١٦/٥).

(٤) انظر: مقالات الإسلاميين (٢٥٦/٢).

شكوا في دينهم ونعوذ بالله ممن يشك في كلام الله عز وجل: أنه غير مخلوق(١).

والذي يظهر أن من وقف عن الكلام في مسألة القرآن بعد ظهور الفتنة تورعاً منه، إنه يعد تورعاً ممقوتاً، ولهذا اشتد نكير السلف على "الواقفة" عامة وعلى الواقفة بالشك خاصة(٢)، وقد روي عن الإمام أحمد عندما سئل: هل لهم رخصة أن يقول الرجل: القرآن كلام الله تعالى، ثم يسكت؟ فقال: ولم يسكت؟ ولولا ما وقع فيه الناس كان يسعه السكوت، ولكن حيث تكلموا فيما تكلموا، لأي شيء لا يتكلمون؟(٣).

فيتبين أن العلماء أدركوا خطأ من وقف في هذه المسألة خصوصاً العلماء الذين يفزع الناس إليهم عند حدوث الفتن، فالفتن لا تداوى بالوقف، وقد ذكر ابن قتيبة رحمه الله في ذلك كلاماً، يقول:" وليس في غرائز الناس احتمال الإمساك عن أمر في الدين قد انتشر هذا الانتشار وظهر هذا الظهور ولو أمسك عقلاؤهم ما أمسك جهلاؤهم ولو أمسكت الألسنة ما أمسكت القلوب.. والشك لا يداوى بالوقوف، والبدعة لا تدفع إلا بالسنة وإنما يقوى الباطل أن تبصره وتمسك عنه"(٤).

---

(١) انظر: الشريعة للآجري ص٧٦.

(٢) انظر: الرد على الجهمية للدارمي ص٣٤٢.

(٣) انظر: الشريعة للآجري ص٧٦، وذكر أن معنى قول أحمد بن حنبل هو أنه : لم يختلف أهل الإيمان أن القرآن كلام الله عز وجل . فلما جاء جهم فأحدث الكفر بقوله: إن القرآن مخلوق_ لم يسع العلماء إلا الرد عليه بأن القرآن كلام الله عز وجل ، غير مخلوق بلا شك، ولا توقف فيه فمن لم يقل: غير مخلوق سمي واقفياً ، شاكاً في دينه.

(٤) اختلاف اللفظ لابن قتيبة ص٢٤٦-٢٤٧ . وانظر في ذلك: كتاب اللمع للأشعري =

٤- اللفظية :قالوا: القرآن كلام الله غير مخلوق ولكن ألفاظنا به مخلوقة ، وظهرت هذه البدعة وهي القول بأن لفظي بالقرآن مخلوق في زمن الإمام أحمد وقد قال بها الحسين بن علي الكرابيسي(١)، يقول ابن تيمية :" وحقيقة قول هؤلاء – وهو أن ألفاظنا وتلاوتنا للقرآن مخلوقة– أن القرآن الذي نزل به جبريل على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم هو قرآن مخلوق لم يتكلم الله به، وكان لهؤلاء شبهة كون أفعالنا وأصواتنا مخلوقه ونحن نقرأ بحركاتنا وأصواتنا ، وربما قال بعضهم ما عندنا إلا ألفاظنا وتلاوتنا وما في الأرض قرآن إلا هذا وهذا مخلوق، فقابلهم قوم أرادوا تقويم السنة فوقعوا في البدعة وردوا باطلاً بباطل، وقابلوا الفاسد بالفاسد فقالوا: تلاوتنا للقرآن غير مخلوقة وألفاظنا به غير مخلوقة لأن هذا هو القرآن والقرآن غير مخلوق ولم يفرقوا بين الاسم المطلق والاسم المقيد في الدلالة وبين حال المسمى إذا كان مجرداً وحاله إذا كان مقرونا مقيداً"(٢).

=ص٣٣، وشرح العقائد العضدية ص١٨٨،و الفتاوى(١٢/٢٠٧-٢٠٨) ، والرد على الجهمية للدارمي ص٨٨ ،٣٤٣.

(١) هو: الحسين بن علي الكرابيسي الفقيه البغدادي تفقه ببغداد سمع الحديث الكثير وصحب الشافعي وحمل عنه العلم، وهو معدود في كبار أصحابه ،قال الخطيب: يعز وجود حديثه جداً لأن أحمد بن حنبل كان يتكلم فيه بسبب مسألة اللفظ، وكان هو أيضاً يتكلم في أحمد فتجنب الناس الأخذ عنه، توفي سنة٢٤٥هـ، قال أبو الطيب الماوردي: كان الكرابيسي يقول: القرآن غير مخلوق ولفظي به مخلوق .انظر: تهذيب التهذيب(١/٥٣٥-٥٣٧).

(٢) الفتاوى(٨/٣٥٩).

وجه الإشكال عند المخالفين :

يقولون كلام الله مخلوق لأن الله تعالى قال: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ [الزُّخرُف:٣] ، وزعموا بأن الجعل بمعنى الخلق، ولأنه قال: ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ ﴾ [الأنبياء:٢]، وكل محدث مخلوق وأن معنى قوله تعالى:﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ ﴾ أي أوجد كلاماً، وقوله جل وعلا: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء:١٦٤]، أي أوجد كلاماً سمعه، فخرجوا بهذا التأويل من اللغة والمعقول[(١)]، ومنهم من استدل بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [الرعد:١٦] على خلق القرآن، يقول القاضي – بعد أن أورد هذه الآية-: "الآية تدل بعمومها على حدوث القرآن، وأنه تعالى خلقه... ولا دلالة توجب إخراج القرآن من العموم، فيجب دخوله فيه"[(٢)].

احتجاج شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بالدلالة اللغوية عليهم :

١-استدلت الجهمية بقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾[الزُّخرُف:٣]، في ادعائهم أن القرآن مخلوق، وذلك بأن(جعل) بمعنى خلق، فيكون القرآن مخلوقاً، وما قالوا بذلك إلا لعجمتهم وقصورهم باللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم [(٣)]، فاحتج عليهم ابن تيمية رحمه الله بحجة لغوية فند من خلالها مقولتهم، يقول ابن تيمية رحمه الله

(١) انظر: الاختلاف في اللفظ لابن قتيبة ص٣٨ .

(٢) المغني في أبواب العدل والتوحيد(٧/٩٤).

(٣) انظر: الاختلاف في اللفظ لابن قتيبة ص٢٣٣-٢٣٤ ، والرد على الجهمية للدارمي ص٤٨٠ ،والرد على المريسي ص١٢٣ ، وشرح العقيدة الطحاوية ص١٨٦ .

:"..الرب تعالى اختص بجعله عربيا إنه هو الذي تكلم به وأنزله فجعله قرآنا عربيا بفعل قام بنفسه وهو تكلم به...ولهذا قال أحمد: الجعل من الله قد يكون خلقا وقد يكون غير الخلق، فالجعل (فعل) ، والفعل قد يكون متعدياً إلى مفعول مباين له: كالخلق ، وقد يكون الفعل لازما وإن كان له مفعول في اللغة قائماً بالفعل: مثل التكلم ؛فإن التكلم فعل يقوم بالمتكلم والكلام نفسه قائم بالمتكلم ؛ فهو سبحانه جعله قرآنا عربيا فالجعل قائم به والقرآن العربي قائم به"[1] ،فيكون معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزُّخرُف:٣] قلناه قرآنا عربياً، أو بيناه، فالمفعول الأول الضمير والثاني قُرْآنًا، حيث إن لفظ "جعل" يأتي بمعنى "خلق" وبغيره ،والقاعدة فيه: أنه لا يأتي بمعنى "خلق" إلا إذا تعدى إلى مفعول واحد، ومنه قوله تعالى:﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام:١]، وقوله: ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾[الأعراف:١٨٩]، وربما تعدى على مفعول واحد ولم يكن بمعنى "خلق" كقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ﴾ [الأنعام:١٠٠] وقوله: ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾[الفِيل:٥] ، أما إذا تعدى على مفعولين فلا يكون بمعنى "خلق" بأي حال ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا ﴾ [البقرة:٦٦] وقوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ

(١) الفتاوى (٢٩/٨) ، وانظر أيضاً: التسعينية(٣٠٠/١-٣٠١).

بِأَمْرِنَا ﴾ [الأنبياء:٧٣].[١]

٢- وأما من احتج بقوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ ﴾[الأنبياء:٢] ، فيقال له هذه الآية حجة عليك ، فأنه لما قال : ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ ﴾[الأنبياء:٢] علم أن الذكر منه محدث ومنه ما ليس بمحدث ؛ لأن النكرة إذا وصفت ميز بها بين الموصوف وغيره ، كما لو قال : ما يأتي من رجل مسلم إلا أكرمته ، وما آكل إلا طعاما حلالا ونحو ذلك ، ويعلم أن المحدث في الآية ليس هو المخلوق الذي يقوله الجهمي ولكنه الذي أنزل جديداً ، إن الله كان ينزل القرآن شيئاً بعد شيء ، فالمنزل أولاً هو قديم بالنسبة إلى المنزل آخراً ، وكل ما تقدم على غيره فهو قديم في لغة العرب "[٢] .

٣- ومن حججه اللغوية عليهم رحمه الله أيضا، عند احتجاجهم بقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ [التكوير:١٩] ، أنها تدل على أن الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام أحدث الكلام العربي [٣]، فرد عليهم رحمه الله تعالى من عدة وجوه[٤] ، وما يعنينا ردوده

(١) انظر: الحلية(٩/١٩٧-١٩٨) .

(٢) الفتاوى (١٢/٥٢١-٥٢٢).

(٣) انظر: الفتاوى(١٢/١٣٥) ،وهذا باطل وذلك لأن الله ذكر هذا في القرآن في موضعين ، والرسول في أحد الموضعين محمد صلى الله عليه وسلم ،والرسول في الآية الأخرى جبريل ، ولو كان أضافه إلى الرسول لكونه= = أحدث حروفه أو أحدث منه شيئاً لكان الخبران متناقضين،فإنه إن كان أحدهما هو الذي أحدثها امتنع أن يكون الآخر هو الذي أحدثها.

(٤) انظر:الفتاوى(١٢/٢٦٥-٢٦٦).

اللغوية حيث قال رحمه الله:"...جمع بين قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [التكوير:١٩] وبين قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:١٩٢] ،..الضميران عائدان إلى واحد ، فلو كان الرسول أحدثه وأنشأه لم يكن تنزيلا من رب العالمين ؛ بل يكون تنزيلا من الرسول. ومن جعل الضمير في هذا عائدا إلى غير ما يعود إليه الضمير الآخر مع أنه ليس في الكلام ما يقتضي اختلاف الضميرين ، ومن قال: إن هذا عبارة عن كلام الله فقل له: هذا الذي تقرؤه أهو عبارة عن العبارة التي أحدثها الرسول الملك أو البشر على زعمك؟ أم هو نفس تلك العبارة؟ فإن جعلت هذا عبارة عن تلك العبارة جاز أن تكون عبارة جبريل أو الرسول عبارة عن عبارة الله، وحينئذ فيبقى النزاع لفظياً؛ فإنه متى قال: إن محمداً سمعه من جبريل جميعه، وجبريل سمعه من الله جميعه، والمسلمون سمعوه من الرسول جميعه، فقد قال الحق"[1] .

٤- وأما "اللفظية" التي قالت :كلام الله الذي لم ينزله غير مخلوق، وأما القرآن الذي أنزله على رسوله وتلاه جبريل ومحمد والمؤمنون فهو مخلوق[2] ،فحاجهم ابن تيمية بقوله رحمه الله:".. فقابلهم قوم أرادوا تقويم السنة فوقعوا في البدعة، وردوا باطلا بباطل،

(١) الفتاوى (١٢/٢٧١) .

(٢) وهم اللفظية الخلقية كما سماهم ابن تيمية ،وكانت " اللفظية الخلقية " من أهل الحديث يقولون : نقول : إن ألفاظنا بالقرآن مخلوقة وإن التلاوة غير المتلو . والقراءة غير المقروء . و " اللفظية المثبتة " يقولون : نقول : إن ألفاظنا بالقرآن غير مخلوقة والتلاوة هي المتلو والقراءة هي المقروء ،انظر: الفتاوى(١٢/٣٧٣-٣٧٥) .

وقابلوا الفاسد بالفاسد، فقالوا : تلاوتنا للقرآن غير مخلوقة، وألفاظنا به غير مخلوقة؛ لأن هذا هو القرآن، والقرآن غير مخلوق، ولم يفرقوا بين الاسم المطلق والاسم المقيد في الدلالة، وبين حال المسمى إذا كان مجردًا، وحاله إذا كان مقرونا مقيدًا"[1] ، ويوضح ابن تيمية أن الإشارة إذا أطلقت انصرفت إلى المقصود وهو كلام الله الذي تكلم به لا إلى ما وصل به إلينا من أفعال العباد وأصواتهم ، يقول ابن تيمية:" وأما المنصوص الصريح عن الإمام أحمد وأعيان أصحابه وسائر أئمة السنة والحديث فلا يقولون مخلوقة ولا غير مخلوقة ولا يقولون التلاوة هي المتلو مطلقا ولا غير المتلو مطلقا كما لا يقولون : الاسم هو المسمى ولا غير المسمى . وذلك أن " التلاوة والقراءة " كاللفظ قد يراد به مصدر تلا يتلو تلاوة وقرأ يقرأ قراءة ولفظ يلفظ لفظا ومسمى المصدر هو فعل العبد وحركاته وهذا المراد باسم التلاوة والقراءة واللفظ مخلوق وليس ذلك هو القول المسموع : الذي هو المتلو . وقد يراد باللفظ الملفوظ وبالتلاوة المتلو وبالقراءة المقروء وهو القول المسموع وذلك هو المتلو ومعلوم أن القرآن المتلو : الذي يتلوه العبد ويلفظ به غير مخلوق وقد يراد بذلك مجموع الأمرين . فلا يجوز إطلاق الخلق على الجميع ولا نفي الخلق عن الجميع"[2] .

٥- وأما من قالوا إن كلام الله مخلوق في الشجرة أو غيرها،وهو قول

(١) الفتاوى(١٢/٢٦٣-٢٦٤) .

(٢) الفتاوى(١٢/٢٧٣).

الجهمية الذين يقولون بخلق القرآن من المعتزلة والنجارية[1] والضرارية[2] وغيرهم ممن ينفون الصفات ويقولون إن القرآن مخلوق[3]، فكانت حجته رحمه الله اللغوية عليهم بقوله:" إن الاسم المشتق من معنى لا يتحقق بدون ذلك المعنى، فاسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبهة وأفعال التفضيل يمتنع ثبوت معناها دون معنى المصدر التي هي مشتقة منه، والناس متفقون على أنه لا يكون متحركا ولا متكلما إلا بحركة وكلام، فلا يكون مريدا إلا بإرادة، وكذلك لا يكون عالما إلا بعلم ولا قادرا إلا بقدرة ونحو ذلك . ثم هذه الأسماء المشتقة من المصدر إنما يسمى بها من قام به مسمى المصدر، فإنما يسمى بالحي من قامت به الحياة ،وبالمتحرك من قامت به الحركة، وبالعالم من قام به العلم، وبالقادر من قامت به القدرة، فأما من لم يقم به مسمى المصدر فيمتنع أن يسمى باسم الفاعل ونحوه من الصفات . وهذا معلوم بالاعتبار في جميع النظائر ، وذلك لأن اسم الفاعل ونحوه من المشتقات مركب يدل على الذات وعلى الصفة، والمركب يمتنع تحققه بدون تحقق مفرداته، وهذا كما أنه ثابت في الأسماء المشتقة فكذلك في الأفعال : مثل تكلم وكلم ويتكلم ويكلم وعلم ويعلم

(١) النجارية : هم أتباع الحسين بن محمد النجار ، للاستزادة انظر: الملل والنحل(١/١١٢-١١٤).

(٢) الضرارية: هم أتباع ضرار بن عمرو وحفص الفرد.للاستزادة انظر: الملل والنحل(١/١١٤-١١٦).

(٣) انظر: المحيط بالتكليف ص٣٢٣ ، وشرح الأصول الخمسة ص٥٢٨ ، والمغني (٣/٧) ، وشرح العقيدة الطحاوية ص١٨٦-١٨٧ .

وسمع ويسمع ورأى ويرى ونحو ذلك سواء قيل : إن الفعل المشتق من المصدر، أو المصدر مشتق من الفعل، لا نزاع بين الناس أن فاعل الفعل هو فاعل المصدر . فإذا قيل : كلم أو علم أو تكلم أو تعلم، ففاعل التكليم والتعليم هو المكلم والمعلم، وكذلك التعلم والتكلم، والفاعل هو الذي قام به المصدر الذي هو التكليم والتعليم والتكلم والتعلم، فإذا قيل : تكلم فلان أو كلم فلان فلانًا، ففلان هو المتكلم والمكلم، فقوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا ﴾[النساء:١٦٤]، وقوله : ﴿ ۞ تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖ ﴾ [البقرة:٢٥٣] ، وقوله : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ [الأعراف:١٤٣] ، يقتضي أن الله هو المتكلم، فكما يمتنع أن يقال : هو متكلم بكلام قائم بغيره، يمتنع أن يقال : كلم بكلام قائم بغيره"[1] ، وبين رحمه الله في موضع آخر منشأ الشبهة عند من زعم أن كلام الله فارق ذاته وانتقل إلى غيره ،فقال رحمه الله:" الشبهة تنشأ في مثل هذا من جهة أن بعض الناس لا يفرق بين المطلق من الكلام والمقيد مثال ذلك أن الإنسان يقول رأيت الشمس والقمر والهلال إذا رآه بغير واسطة وهذه الرؤية المطلقة وقد يراه في ماء أو مرآة فهذه رؤية مقيدة فإذا أطلق قوله رأيته أو ما رأيته حمل على مفهوم اللفظ المطلق وإذا قال لقد رأيت الشمس في الماء والمرآة فهو كلام صحيح مع التقييد واللفظ يختلف معناه بالإطلاق والتقييد فإذا

(١) الفتاوى (١٢/٥١٢-٥١٤).

وصل بالكلام ما يغير معناه كالشرط والاستثناء ونحوهما من التخصيصات المتصلة كقوله ألف سنة إلا خمسين عاما كان هذا المجموع دالا على تسعمائة وخمسين سنة بطريق الحقيقة عند جماهير الناس"(١).

٦- واحتج عليهم أيضاً بقوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾[النساء:١٦٤] ، فقال رحمه الله:" إن الله أكد تكليم موسى بالمصدر فقال (تكليما) قال غير واحد من العلماء : التوكيد بالمصدر ينفي المجاز ، لئلا يظن أنه أرسل إليه رسولا أو كتب كتاباً بل كلمه منه إليه"(٢).

٧- والقائلين بالمجاز،فإنهم أنكروا أن يكون كلام الله بصوت وحرف على الحقيقة ، وقالوا: بل هو مجاز ،فحاجهم بقوله: "ومن قال إن هذا مجاز فقد غلط فإن هذا المجموع لم يستعمل في غير موضعه وما يقترن باللفظ من القرائن اللفظية الموضوعة هي من تمام الكلام ولهذا لا يحتمل الكلام معهما معنيين ولا يجوز نفي مفهومهما بخلاف استعمال لفظ الأسد في الرجل الشجاع مع أن قول القائل هذا اللفظ حقيقة وهذا مجاز نزاع لفظي وهو مستند من أنكر المجاز في اللغة أو في القرآن ولم ينطق بهذا أحد من السلف والأئمة ولم يعرف لفظ المجاز في كلام أحد من الأئمة إلا في كلام الإمام أحمد فإنه قال فيما كتبه من الرد على الزنادقة والجهمية هذا من مجاز القرآن وأول من قال ذلك مطلقا أبو عبيدة

(١) الفتاوى(١٢/٢٧٦-٢٧٧).
(٢) الفتاوى(١٢/٥١٥).

معمر بن المثنى في كتابه الذي صنفه في مجاز القرآن ثم إن هذا كان معناه عند الأولين مما يجوز في اللغة ويسوغ فهو مشتق عندهم من الجواز كما يقول الفقهاء عقد لازم وجائز وكثير من المتأخرين جعله من الجواز الذي هو العبور من معنى الحقيقة إلى معنى المجاز ثم إنه لا ريب أن المجاز قد يشيع ويشتهر حتى يصير حقيقة"[1] .

(١) الفتاوى(١٢/٢٧٧).

الخاتمة

في خاتمة هذا البحث أحمد الله جل وعلا وأشكره سبحانه على منه وكرمه وتوفيقه، فله الحمد والشكر حتى يرضى وله الحمد والشكر بعد الرضا .

وبعد.. فهذا جُهد المقل، تقدمت به في هذا المجال الواسع آملة أن يلقى القبول والاستحسان، ولقد توصلت في بحثي هذا إلى بعض النتائج والفوائد، لعلي أذكر بعضاً منها:

١- أهمية العلم باللغة العربية للمجتهد في علوم العقيدة، وهذا مما يوجب على طالب العلم أن يجعل عظيم اجتهاده وعنايته بدراسة اللغة العربية .

٢- تتضح مكانة شيخ الإسلام رحمه الله اللغوية واهتمامه باللغة العربية، حيث كان هذا العلم عنده وسيلة لفهم كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وذلك بإجراء النصوص على الأساليب اللغوية المعهودة معنى وإعراباً ، دون ما يخالف ذلك من الوجوه الإعرابية الشاذة، بخلاف من يُؤصلون بدعهم ثم يفرعون اللغة والأدلة الشرعية عليها.

٣- كان ابن تيمية رحمه الله يمعن النظر في المسألة؛ ولما كان بحراً في اللغة العربية فلقد كان يختار ما يراه راجحاً في المسألة، غير متبع لآراء من كان قبله.

٤- عند النظر إلى احتجاجات شيخ الإسلام اللغوية على المخالفين في مسألة كلام الله نجد أنهم قد عمدوا إلى الاستدلال باللغة العربية لتوافق أقوالهم وتنصرها، وإلا فهي لا تقوم على أساس لغوي قوي وواضح .

٥- سلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله مسلك أهل السنة والجماعة من السلف الصالح بالأخذ بالمعنى الظاهر من اللغة العربية عند الاستدلال بالنصوص من الكتاب والسنة، فالأصل عندهم بقاء النصوص على ظاهرها.

مما سبق يتبين أن هذا الموضوع من الأهمية بمكان وينبغي أن تتوجه إليه الجهود ويحظى بالعناية والاهتمام، آملين أن ينال القبول ويلقى الاستحسان.

وصل اللهم وسلم على سيدنا وحبيبنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فهرس المراجع والمصادر

- القرآن الكريم .
- الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية لابن قتيبة، ت:علي سامي النشار،منشاة المعارف،١٩٧١م.
- الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد للشيخ صالح بن فوزان الفوزان،ط٢،١٤١٦هـ، دار ابن الجوزي،المملكة العربية السعودية.
- الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد :لإمام الحرمين أبي المعالي عبد الملك الجويني،ت:أسعد تميم ،مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت ،ط١ ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- الاستقامة : لشيخ الإسلام ابن تيمية ،ت: د.محمد رشاد سالم ،دار الفضيلة للنشر والتوزيع،ط١، ١٤٢٠هـ .
- الأسماء والصفات : للإمام أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي ،ت: عبد الله بن محمد الحاشدي ،مكتبة السوادي ،جدة ،ط١ ،١٤١٣هـ .
- الأنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به:لأبي بكر بن الطيب الباقلاني، ت:عماد الدين حيدر، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ.
- الإيمان لابن تيمية ، المكتب الإسلامي،بيروت، ط٣، ١٣٩٩هـ.
- البحر المحيط في أصول الفقه، لبدر الدين الزركشي، ت د.محمد محمد تامر،لبنان،بيروت،دار الكتب العلمية، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م .
- البداية والنهاية :للحافظ ابن كثير ،ت: مجموعة من المختصين ،دار الريان للتراث، ط١ ،١٤٠٨هـ .
- التبصير في معالم الدين:لمحمد بن جرير بن يزيد ،أبو جعفر الطبري،ت: علي بن عبد العزيز بن علي الشبل، دار العاصمة ،ط١ ،١٤١٦هـ-١٩٩٦م.
- التبيين عند مذاهب النحويين البصريين والكوفيين: لأبي البقاء العبكري،

ت: د.عبد الرحمن العثيمين، دار الغرب الإسلامي-بيروب، ط١، ١٤٠٦هـ.

- التسعينية :لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ،ت:د.محمد بن إبراهيم العجلان، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع،الرياض، ط١، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.
- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح :لشيخ الإسلام ابن تيمية ،ت:د.علي بن حسن بن ناصر ،ود.عبد العزيز بن إبراهيم العسكر ،ود.حمدان بن محمد الحمدان، دار العاصمة ،ط١ ،١٤١٤هـ .
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء :لأبي نعيم الأصفهاني ،دار الفكر،١٤١٦هـ.
- الخصائص:لأبي الفتح عثمان بن جني الموصلي، دار الكتب المصرية القديمة .
- درء تعارض العقل والنقل :لشيخ الإسلام أبي العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني ،ت:إياد عبد اللطيف بن إبراهيم القيسي ،مكتبة الرشد، الرياض، ط١ ،١٤٣٧هـ-٢٠٠٦م .
- الرد على الجهمية : للإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد الدارمي،ت:بدر بن عبد الله البدر،دار ابن الأثير،الكويت،ط٢،١٤١٦هـ .
- رد الدارمي على بشر المريسي (نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد فيما افترى على الله عز وجل من التوحيد) :عثمان بن سعيد الدارمي،ت: محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية ،١٣٥٨هـ.
- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة: للإمام أبي القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور اللالكائي ،ت:أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي، دار طيبة،الرياض، ط٤،١٤١٩هـ .
- شرح الأصول الخمسة :لعبد الجبار الهمذاني المعتزلي،ت:عبد الكريم عثمان، مكتبة وهبة-القاهرة، ط٢، ١٤٠٨هـ.

- شرح العقائد العضدية: لجلال الدواني،ت:سيد هادي، مكتبة الشروق، ٢٠٠٢م.
- شرح العقيدة الأصفهانية :لابن تيمية ،ت:حسنين محمد مخلوف، دار الكتب الحديثة–القاهرة، ط١.
- شرح العقيدة الطحاوية :للإمام القاضي علي بن علي بن محمد بن أبي العز الدمشقي،ت:د.عبد الله بن عبد المحسن التركي وشعيب الأرنؤوط ،دار عالم الكتب للطباعة والنشر –الرياض ، ط٣ ،١٤١٨هـ-١٩٩٧م .وطبعة مؤسسة الرسالة،ط٢، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٥م .
- شرح الكوكب المنير : لابن النجار الحنبلي ،ت:محمد الزحيلي ونزيه حماد، مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى، ط١، ١٤٠٠هـ.
- شرح صحيح مسلم :للنووي ،دار الفكر –لبنان، عن المطبعة المصرية.
- الشريعة : لأبي بكر الآجري ،ت: حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية –مصر، ١٣٦٩هـ.
- صحيح الإمام البخاري،ت:مصطفى البغا،دار ابن كثير واليمامة-دمشق.
- صحيح الإمام مسلم، ت:محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي- لبنان،عن طبعة مصر.
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري :لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، طبعة دار الجيل ، بيروت-لبنان.
- قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة:لشيخ الإسلام ابن تيمية،ت:د.ربيع بن هادي المدخلي، طبعة مكتبة لينة، دمنهور- مصر،١٤٠٩هـ-١٩٨٨م.

- لسان العرب:لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور ،مكتبة العلوم والحكم، ط٢ ،١٤١٢هـ.
- اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع:لأبي الحسن الأشعري ت:د.حمودة

غرابة، المكتبة الأزهرية للتراث .
- متشابه القرآن :للقاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني، ت:عدنان محمد زرزور، دار التراث بالقاهرة،دار النصر للطباعة.
- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم النجدي.
- المحصول في علم الأصول لمحمد بن عمر بن حسين الرازي ، ت:طه جابر فياض العلواني ،الرياض ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠٠هـ.
- المحيط بالتكليف:للقاضي المعتزلي عبد الجبار الهمداني ،ت:عمر عزمي، المؤسسة المصرية العامة- القاهرة، ١٣٨٧هـ.
- مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة:لابن القيم، دار الكتب العلمية-بيروت.
- معالم أصول الدين: للفخر الرازي ،ت:طه عبد الرءوف ،مكتبة الكليات الأزهرية بالقاهرة.
- معجم مقاييس اللغة :لأحمد بن فارس ،ت:عبد السلام هارون، طبعة مصطفى البابي الحلبي -القاهرة.
- المغني للقاضي عبد الجبار المعتزلي ،ت: د.عبد الحليم محمود ،د.سليمان دنيا ، طبعة الدار المصرية للتأليف والترجمة ،القاهرة — مصر .
- مناقب الإمام أحمد :لأبي الفرج ابن الجوزي ،ت:عبد الله التركي، مكتبة هجر للطباعة والنشرن ط٢، ١٤٠٩هـ.
- منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية:لابن تيمية،ت: رشاد سالم،نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض.
- موقف ابن تيمية من الأشاعرة :لعبد الرحمن المحمود، مكتبة الرشد بالرياض، ط٢، ١٤١٦هـ.
- نهاية الإقدام في علم الكلام لأبي الفتح محمد عبد الكريم بن أبي بكر الشهرستاني، مكتبة الثقافة الدينية .

الفهرس العام

الموضـــــــــــوع	الصفحة
مقدمة	٥٩٣
المبحث الأول : المراد بمسمّى الكلام .	٥٩٦
المبحث الثاني : إثبات صفة الكلام .	٦٠٠
المبحث الثالث : مسألة النداء .	٦٠٥
المبحث الرابع : الرد على القائلين بخلق القرآن	٦٠٨
الخاتمة	٦٢١
أهم المراجع والمصادر	٦٢٣
الفهرس العام	٦٢٧